قلاقل فى دارفور
Trouble in Darfur
من فصل فى كتاب "المحاربون السودانيون"

هـ. س. جاكسون H. C. Jackson

مقدمة: هذا تلخيص لما ورد في فصل بعنوان "قلاقل في دارفور" في كتاب صغير الحجم عنوانه "المحاربون / المتحاربون السودانيون The Fighting Sudanese " صدر عام ١٩٥٤م عن دار نشر ماكميلان بلندن لمؤلفه هـا. س. جاكسون، الذي عمل في السلك الإداري في دولة الحكم الثنائي لخمسة وعشرين عاما متصلة في بربر وحلفا ومدني وغيرها من مدن السودان.

يشيد الكتاب بالسودانيين كشعب محارب شجاع، ويذكر طرفا مما شهده من حروبهم، وأهدى لهم كتابه هذا بقوله: "إلى شعب السودان، والذين خدموا بإخلاص وحاربوا بشجاعة من أجل حرية البشرية". ونشر المؤلف أيضا كتبا أخرى عديدة عن السودان منها "عثمان دقنة" و"السودان: أيام وعادات" و"الزبير باشا السلطان تاجر الرقيق" و"السودان الحديث" ومقالات متنوعة منها مقال شهير عن الأمثال السودانية سبق لنا ترجمته. المترجم

***

انطلقت في نهاية أغسطس عام ١٩٢١م إشاعة غامضة في أوساط رجال القبائل حول مدينة نيالا بقرب حدوث قلاقل في المنطقة. وفي الخامس من سبتمبر وصلت لأسماع السيد/ تنينت ماكنيل باشمفتش المديرية أنباء عن تزعم الفكي عبد الله ود السحيني لقوة كانت تنوي مهاجمة مدينة نيالا، والتي هي من أقصى النقاط

الإدارية في السودان، فهي تبعد نحو ١٢٠ ميلا جنوب الفاشر (عاصمة مديرية دارفور)، ويفصلها عن الأبيض (آخر مدينة تصلها السكة حديد في غرب البلاد) منطقة شبه صحراوية طولها ٣٩٦ ميلا، وتبعد الأبيض نفسها عن الخرطوم مسافة قدرها ٤٢٨ ميلا.

وكانت دارفور هي آخر المديريات التي ضمت لدولة الحكم الثنائي (المصري – البريطاني)، إذ أن الحكم الجديد بعد تسنمه لسدة الحكم في عام ١٨٩٨م كان قد سمح لعلي دينار بحكم دارفور مقابل دفعه لجزية رمزية. إلا أن على دينار استجاب في عام ١٩١٦م لإغراءات ومداهنات الألمان والأتراك وتخلى عن حلفه مع دولة الحكم الثنائي، والذي لم يتردد في الإطاحة بحكمه في حملة قصيرة لكنها ناجزة، ومن بعد ذلك ضمت دارفور لدولة الحكم الثنائي بصورة تدريجية. وأثار هذا الضم بالطبع بعض المشاعر العدائية عند كثير من الدارفوريين الذين أضر بهم حرمان الحكومة لهم من فرص سابقة كانوا يزدادون بسببها ثراءً على حساب جيرانهم.

وكان يقطن في نيالا أناس من أعراق مختلفة، ولا يجمع بينهم غير كرههم لأي سلطة تفرض عليهم من قبل حكومة مسيحية. ومما زاد الطين بلة وصعب من مهمة الحفاظ على الأمن والنظام في نيالا هو نقص عدد الموظفين الحكوميين في كل المجالات. فقد كان من المتعذر على المفتش البريطاني زيارة كل المناطق البعيدة الواقعة تحت سلطته بالتواتر المطلوب، وكان غيابه عن تلك المناطق البعيدة – كما تبين لاحقا – يشجع البعض، وبصورة متزايدة، على القيام بانتهاكات وفظائع. وكان بعض الشيوخ والعمد ممن أوكلت إليهم مهمة تقدير وجمع الضرائب والعوائد يأكلون أموال المواطنين بالباطل. وكان كثير منهم يحذو حذو من سبقهم من المصريين والأتراك في استخدام وسائل غير إنسانية في جمع الضرائب، بل وقاموا بتقييد وضرب بعض زعماء القبائل البارزين وجلدهم بالسياط علنا من أجل ابتزاز مزيدا من الأموال منهم. وكما كان الحال في عهد التركية، كان بعضا من هؤلاء

يستغلون بعض نساء القرى التي كانوا يجمعون منها الضرائب. وبهذا تنامت المظالم الاقتصادية والسياسية عند الأهالي واختلطت بمشاعر التعصب الديني فخلقت مزيجا خطيرا شديد الانفجار.

وعندما سمع السيد/ تنينت ماكنيل باشمفتش المديرية بأنباء تلك القلاقل لم يجد أمامه سوى خيارات أحلاها مر. فقد كان يمكن له أن يفترض أن تلك الأنباء كاذبة أو مبالغ فيها، وأن لا يفعل شيئا البتة وينتظر إلى أن تتضح صورة الموقف ويحصل على مزيد من المعلومات. غير أن ذلك التأخير قد يجعل من فعل أي شيء لاحقا أمرًا مستحيلا. وكان يمكن أيضا للباشمفتش أن يرسل طلبا لتعزيزات عسكرية، بيد أن ذلك كان سيهز الثقة في سلطاته الإدارية إن ثبت خطل تلك الأنباء عن تمرد ذلك الفكي، لا سيما وأن الثقة في النظام الإداري كانت ترتكز على هيبة (بريستيج) المسؤول البريطاني المنعزل الوحيد الذي تسنده قوة غامضة على بعد أميال وأميال.

قرر السيد/ تنينت ماكنيل أن لا يتسرع في طلب مدد عسكري حتى يتيقن من عدم إمكانية العثور على حل آخر ممكن. كان يدرك أن الفكيا Fekis (جمع فكي) ظلوا دوما مصدر كل القلاقل وحالات التمرد في السودان، بيد أن كثيرا من تلك الحالات لم تكن تسبب غير إزعاج مؤقت للسلطات ليس له من كبير تأثير أو خطر. فقد كانت طلقة نارية واحدة من بندقية شرطي في اللحم كفيلة بأن تثبت بأن طلقات الحكومة النارية لن تستحيل ماءً كما كان الفكي يعد أتباعه، وكانت تلك الطلقة النارية تنجح دوما في تفريق الجموع. هل سيصدق هذا السيناريو في هذه المرة يا ترى؟ صعب على السيد/ تنينت ماكنيل أن يبت في الأمر، فقد كان رجلا مريضا وفي حاجة عاجلة لاستراحة طويلة، وكان مسؤولا في منطقة تبعد حوالي مائة ميل من أقرب مكان به رجل أبيض، وبذا لم تكن لديه الفرصة لمشاورة أي إنسان من بني جلدته. ولعل الرجل قد اعتقد بأن مرضه قد يؤثر سلبا على مقدرته على الحكم على الأشياء ويضخم له من المشكلة التي تجابهه. ولم يتضح إلا بعد ذلك

التاريخ بكثير أن الفكي عبد الله ود السحيني كان مثالا نموذجيا للقائد المتعصب دينيا والذي كان قد أفلح في إقناع أعداد كبيرة من التبع الجهلاء بأنه مجدد للدين، وبامتلاكه لقدرات هائلة معجزة. وكان بعضا من مريديه يزعمون أنهم قد سمعوا بآذانهم طبول الجنة تدق فوق رأسه، وبأن ثمانية من النسور البيضاء تهبط من السماء وتحرسه من الأمام ومن الخلف حين يقوم بفرش فروته على الأرض، وبأنه إن غرز حربته العريضة في أرض ما، فلن يكون بمقدور كائن من كان أن ينزعها عنها، وبأن له القدرة على تحويل طلقات رصاص الحكومة الناري إلى ماء لا يضر. وكان ذلك الفكي قد قام بعمل استعراض لبعض "معجزاته" أمام بعض أتباعه بعد أن استبدل سرا الرصاص الذي كان محشوا في طلقة نارية وملأها بالماء، وأطلق الرصاص فسال الماء أمام أعين المريدين فازدادوا به إيمانا!

سمع السيد/ تنينت ماكنيل بقرب حدوث الهجوم على نيالا فأرسل العيون لمحاولة معرفة تحركات الفكي المتمرد ونواياه. وأثبتت الأيام لاحقا بأن أولئك البصاصين لم يكونوا مخلصين أو مجيدين في عملهم. وفي يوم ١٧ سبتمبر قرر السيد/ تنينت ماكنيل أن الفكي عبد الله عاقد العزم على الهجوم على نيالا فأرسل رسولا إلى الفاشر يحمله رسالة مفادها أن هنالك رجلا اسمه عبد الله قد أعلن الجهاد ضد الحكومة، وأنه يزعم أنه "النبي عيسى"، وأن له ٢٠٠ من الأتباع، وأكد لمدير المديرية أنه بصدد القبض على ذلك الفكي المتمرد. وتبين فيما بعد أن السيد/ تنينت ماكنيل كان يجهل في الواقع العدد الحقيقي لأتباع ذلك النبي المزعوم.

بعد ثلاثة أيام على بعثه لتلك الرسالة جاءه من يبلغه بأن نيالا ستهاجم في تلك الليلة فأصدر أوامره لمن تحته من رجال الشرطة وحرس السجون (ولم يكن عددهم يزيد على الأربعين رجلا) بالاستعداد، وصرف للموظفين السبعة العاملين في إدارة محطته (مثل القاضي وعامل البناء والحلاق وغيرهم من العاملين) بنادق صغيرة وذخيرة إضافية. وقام أيضا بتزويد التجار ببنادق عتيقة كانت قد غنمت من جيش علي دينار في عام ١٩١٦م وذلك لحماية ممتلكاتهم في سوق المدينة.

وبحلول الساعة الثامنة من ليل ذلك اليوم كان الجميع في أقصى حالات الحذر والترقب والاستعداد لهجوم ذلك الفكي المرتقب. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، ومرت تلك الليلة بسلام. وفي صبيحة اليوم التالي انشغل الجميع بحفر خندق حول المدينة لمنع دخول المتمردين القادمين على ضهور الخيل، وقاموا أيضا بوضع أسلاك شائكة كثيفة على بعد ثلاثين ياردة من مكاتب الحكومة حماية وتأمينا لها، إلا أنه سرعان ما تكشف ضعف تلك التحصينات عندما قام حصان شرطة هائج بالاندفاع نحو السلك الشائك واختراقه لحظة الانتهاء من نصبه!

ظل الجميع في حالة من القلق والتوتر والتوجس لأربعة أيام بلياليها وهم ينتظرون الهجوم المحتمل إلى أن قدم أحد بصاصي الحكومة وجواسيسها يوم ٢٤ سبتمبر وأعلن أن الفكي عبد الله وجنده عى بعد مسيرة يوم ونصف من نيالا، أي أنهم سيهاجمون نيالا في ليل السادس والعشرين. وهنا دعنا نترك أمر تلك الحامية الصغيرة المؤلفة من نحو خمسين رجلا تنتظر هجوما كاسحا من جيش قدره بعضهم من فرط القلق والتخوف والرعب بعشرة آلاف مقاتل متمرد، ولنذهب لمعرفة ما حدث للرسل الذين بعث بهم السيد/ تنينت ماكنيل إلى الفاشر لإبلاغ المسؤولين هنالك بأنباء ذلك الغزو المحتمل.

في ١٧ سبتمبر غادر المندوب الأول الذي بعثه مفتش نيالا إلى الفاشر مدينته حاملا أنباء التمرد، وقطع المسافة بين نيالا والفاشر والبالغة ١٢٠ ميلا في المدة المعتادة وهي خمسة أيام.

وعلى الرغم من أن السيد ماكنيل مفتش نيالا لم يطلب عونا عسكريا، إلا أن السيد نكولوس نائب مدير مديرية دارفور أحس بأن الأخبار الواردة من نيالا خطيرة بما فيه الكفاية وأن عليه إرسال تعزيزات عسكرية لنيالا.

وعلى الفور أمر بأن تغادر الفاشر قافلة مكونة من أربعة وستين جنديا من فيلق عرب الغرب عند الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٣ سبتمبر وأعطيت لها أوامر صارمة بأن تكون في نيالا في أو قبل يوم ٢٨ سبتمبر.

وتصادف أن كان الضابطان البريطانيان الوحيدان في الفاشر مريضين فتولى القيادة ضابط سوداني هو النقيب بلال أفندي رزق، في رفقة ضابط سوداني آخر هو ملازم ثاني سعد أفندي عمر كنائب له.

وفي غضون الأيام القليلة التالية بعث السيد ماكنيل من نيالا بخمس رسائل إضافية وصلت إحداها للفاشر في يومين فقط.

وكان واضحا أن السيد ماكنيل كان في حالة كرب شديد وخطر عظيم. فقد جاء في رسالته ما يلي: "لقد حصنت مباني المركز ونصبت أسلاكا شائكة حولها. وإلى الآن لم أتبين حقيقة الفكي السحيني أو أتلقى أي معلومات عنه. يبدو الأمر غريبا الآن، وأخشى أن تكون هنالك مؤامرة شاملة، وأن الأهالي بالمدينة والذين يدعون أنهم سيحاربون بكل ما لديهم من قوة على علم مسبق بهذه المؤامرة... لدي الآن خطاب بعث به إلى الناظر أبو الحميرا مع مندوبين يفيد بأن لهذا الفكي عدد كبير من الأتباع، وسمعت من المندوبين أن للرجل نحو ثمانمائة أو تسعمائة من الجنود. ولدي شعور عميق بأن هؤلاء المندوبين من الخونة، بيد أني أصدق تقديرهما لعدد أتباع الفكي. حسنٌ... إن كان عدد هؤلاء كما زعم هذان الرسولان فسوف تكون أمامنا معركة حامية الوطيس. إن سمعة الدارفوريين أمام نيران البنادق ليست حسنة، وسنذيقهم إياها نارا لهبا. وليس أمامهم من سبيل غير إضرام أسقف بيوت المركز، ولكننا سنصمد حتى النهاية..... آسف جدا لأنني أشعر الآن بالاكتئاب، ولكن يجب أن لا تقلقوا علينا، وأن تدركوا أن كل فرد منا هنا سيفعل أقصى ما في وسعه.... وإن بعثتم لنا بتعزيزات فستجري الأمور على ما يرام."

وبدأت فرقة المشاة المحمولة سيرها ببطء نسبي، وقبل أن تقطع مسافة طويلة قابلت أحد رسل السيد ماكنيل وهو يحمل للمسؤولين في الفاشر رسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية لم يستطع أحد قراءة كلمة واحدة منها.

ولكن خمن النقيب بلال أفندي رزق، وبعد أن رأى بعض الكلمات مكتوبة بالقلم الأحمر على ظرف الخطاب، أن الأمر جد خطير فجد في السير.

وعند منتصف الليل، وبعد أن كان الجنود قد ساروا ثماني ساعات، توقفوا لأخذ استراحة قصيرة، ولكن سرعان ما جاءهم مندوب يحمل رسالة إلى النقيب بلال أفندي رزق تنبئه بأن الحالة في نيالا حرجة جدا، وأن عليه أن يصلها ليلة الأحد أو قبلها.

وهب الجنود من فورهم عقب سماعهم لفحوى تلك الرسالة لمواصلة مسيرتهم القاصدة نيالا دون توقف ولم يضيعوا دقيقة واحدة إلا لتناول لقيمات، ولإطعام خيولهم وسقياها.

وفي العاشرة من مساء يوم السبت وصلت فرقة الجنود إلى منواشي وحينها لم تعد البغال التي كانت تحمل المؤن قادرة على مواصلة السير، ولم يكن هنالك من بد من إنزال ما عليها من أثقال، ووضعت على قليل من تلك البغال الذخيرة وملابس الضباط.

وواصل بعد ذلك الجند مسيرتهم وهم يرددون الأهازيج الحماسية في روح معنوية عالية وفي شوق عارم لخوض المعركة المنتظرة. وعند الثالثة صباحا من يوم الأحد لاحت لهم من بعيد معالم نيالا، والتي وصلوها بعد ٤٨ ساعة من تحركهم من الفاشر، ودون أي خسارة في الرجال أو الخيول.

وفي الفاشر، وبعد مغادرة تلك الفرقة لها بساعات قليلة آب الرائد شون (وهو من الفيلق البيطري الملكي) إلى مطعم الضباط بعد يوم طويل قضاه في صيد البقر الوحشي.

وعندما سمع بأنباء القلاقل في نيالا تطوع من فوره للذهاب لنيالا، حيث أنه كان قد وعد زميلا له بزيارة السيد ماكنيل في نيالا في أقرب فرصة تتاح له.

كان الرائد شون يدرك مقدار الأخطار التي قد يتعرض لها في نيالا، بيد أنه لم يلق لها بالا وقام بتوديع الرقيب الذي يعمل معه وهو يقول: "من الممكن أن لا أعود ثانية... فلا تبتئس!"

بدأ الرائد شون رحلته في رفقة رجل شرطة وخادمين عند منتصف الليل، وقطع في اثنين وعشرين ساعة مسافة قدرها اثنين وسبعين ميلا قبل أن تنهار الجمال التي كانت تحمل الأمتعة.

عندها أركب شون خادميه على جمل واحد، ومضى مواصلا الرحلة الطويلة إلى أن انهارت قوى حصان رجل الشرطة الذي كان يرافقه، وبدأ حصانه هو في العرج.

لم يثنه كل ذلك فمضى في سيره مشيا بالأقدام تحت حر قائظ حتى وصل نيالا قبيل الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين ٢٦ سبتمبر بعد رحلة عسيرة استمرت دون انقطاع ستين ساعة كاملة.

دلف إلى المدينة من الناحية الشمالية الشرقية فوجدها مهجورة خاوية على عروشها، إلا أنه وجد على الأرض بعض قصاصات من أوراق مكتوب عليها "لا تخافوا... هذه التعويذة (البخرات) ستحيل رصاص الحكومة إلى ماء" مما أكد له أن العدو كان قد حل بهذه المنطقة. سار شون نحو مبنى المركز حيث وجد السيد ماكنيل، وأفراد فرقة المشاة المحمولة ورجال الشرطة وبعض الكتبة والتجار، وكلهم في حالة من اليقظة والحذر والاستعداد لصد الهجوم المرتقب.

تقع نيالا على الخط الذي يفصل شمال السودان القاحل عن جنوبه الوافر الخضرة. وتعد تربتها الرملية الحصبائية امتدادا للظروف المناخية التي سادت المنطقة، إلا أن وجود أشجار الأكاسيا الصغيرة ومجموعات أشجار الدوم والتبلدي الضخمة تبين أن المياه الجوفية ليست غؤُورًا تحت الأرض، وعادة ما تهطل في فصل الصيف أمطار تكفي لجني محصول وافر من الذرة والدخن والسمسم يسد حاجة سكان لا يقومون بكثير من الأنشطة البدنية.

وعلى بعد مائة وألف ياردة إلى الجنوب من مبنى المركز يوجد خور لا تجري فيه المياه إلا عقب هطول أمطار غزيرة، بينما تحيط بالمكان من جهتي الغرب والجنوب أشجار اللعوت الكثيفة.

وأما من جهة الشرق فتوجد مساحة خالية مفتوحة ليس فيها غير بعض قطاطي الأهالي وشجرة تبلدي ضخمة (ستبين لاحقا أهميتها في المعركة التي دارت بالمكان). وإلى الشمال يقع السوق، والذي بعث له ملازم ثاني سعد أفندي عمر مع خمسة عشر من الرجال من أفراد فرقة المشاة المحمولة.

قد يبدو للوهلة الأولى أن تشتيت قوة صغيرة كهذه ليس من الحكمة في شيء، ولكن – وكما أثبتت الأحداث لاحقا- فقد أنقذ ذلك التحرك الموقف في ذلك اليوم.

لم تكن لنيالا في أيام التمرد تلك أي نوع من الدفاعات، إذ لم تكن في أي مبنى فيها حلقات تحصين، وكانت أسقفها من القش اليابس والذي يسهل إضرام النار فيه.

ولا يوجد في السودان قاطبة إلا فيما ندر أي مبنى يمكن أن نطلق عليه بحق اسم "قلعة"، وحتى عند وجود هذه "القلعة" فهي في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون زريبة من نبات شوكي يحيط بمعسكر حربي.

وكانت سياسة الحكومة تعتمد على الدخول المسالم (الناعم) لضابط أو موظف مدني يطوف مع رجل أو رجلين من الجيش أو الشرطة. ولم تكن القوة العسكرية تستخدم إلا عندما تثور قبيلة جامحة وتتحدى السلطات أو تغير على جيرانها وتنهب أبقارها وعبيدها كما كان يفعل كثيرا منهم في الأيام الخوالي.

وكانت نيالا مدينة تصعب السيطرة عليها، إذ لم يكن فيها ما يعرف عند العسكريين بـ (field of fire) فعند الخور في جهة الجنوب يمكن لجند العدو أن يحتشدوا دون أن نراهم، ولا يمكن لنا رؤيتهم وهم على بعد سبعمائة ياردة إلا بعد أن يعبروا بسلام التلال الرملية. ولا يمكن لمن وضعناهم من جنود الاستطلاع على سقف السجن أن يعلموا شيئا عن تحركات العدو إلا بعد أن يكون على بعد أربعمائة ياردة فقط منا.

وبعد عشرين دقيقة من وصول الرائد شون ثار النقع وغطت موجة عاتية من الغبار المكان معلنة عن بدء المعركة المنتظرة، وتعالت صيحات الدراويش وطبولهم وهم يرددون: "الدين منصور...منصور الدين....نجاهد في سبيل الله" ويندفعون للقاء جنود الحكومة. وكان ملازم ثاني سعد أفندي عمر مع خمسة عشر من جنوده يحرسون منطقة السوق في شمال شرق المدينة، بينما تمركز في جهة الغرب نحو ثلاثمائة وأربعمائة جندي من "قوات صديقة" كانوا (وباستثناء قوات سلطان كبكبيه) لا يعتمد عليهم. كان السيد ماكنيل قد صرف لهؤلاء الجند شارات حمراء ليميزهم عن قوات الفكي المهاجمة، إلا أن معظمهم أطلق ساقيه للريح لحظة المعركة، بينما نزع آخرون شاراتهم الحمراء وانضموا للمتمردين.

وفي مبنى المركز نفسه بقي السيد ماكنيل والرائد شون مع أربعين من المدنيين وحرس السجون بقيادة الملازم أول حسن محمد الزين مسلحين بالبنادق الصغيرة، وخمسين من رجال فيلق عرب الغرب بقيادة النقيب بلال أفندي رزق.

كان المتمردون يحملون الحراب والسيوف العريضة ويتقدمون على ثلاثة محاور وتحت رايات تسع نسج أو كتب على كل منها آيات قرآنية.، بينما ٌتيَ الفكي عبد الله السحيني مع مائتين إلى ثلاثمائة من الخيالة وتقدموا شرقا حتى يقطعوا الطريق على كل من يضطر للانسحاب والتراجع للفاشر. تقدم بعض المتمردين شمالا نحو قطاطي الأهالي فأضرموا فيها النيران.

وفي هذه العملية فقد المتمردون المئات من رجالهم، وكانت خسائرهم ستكون أفدح لولا خشية ملازم ثاني سعد أفندي عمر من أن تصيب نيرانه بالخطأ من هم بالمركز. كذلك أفلح سلطان كبكبيه في صد المعتدين من جهة الغرب. ولكن كانت الكثرة هي الغالبة فتدفق المتمردون عبر الأسلاك الشائكة واستولوا في أقل من عشرة دقائق على المركز، وقتل في ذلك الهجوم الرائد شون وثلة من رجال فيلق عرب الغرب. وقتل كذلك السيد ماكنيل وهو يحاول التسلل للإسطبل مع بعض رجاله من أجل الانسحاب ومعاودة الكرة مع العدو في يوم آخر.

وعند الساعة التاسعة إلا ربعا صباحا كان الموقف كالتالي: كان نحو خمسين من الدراويش يعيثون فسادا في المركز ويسلبون ويحرقون مباني الحكومة، (! المترجم) وكانت قطاطي الأهالي تحترق، بينما تمركز الفكي عبد الله تحت شجرة التبلدي الضخمة في شرق المدينة.

وبقي ملازم ثاني سعد أفندي عمر في منطقة السوق مع رجاله الخمسة عشر (والذين لم يهاجمهم المتمردون) دون ذخيرة بعد أن استنفدت بالكامل. وكان بقاؤهم في تلك المنطقة يعني الموت المحقق فقرر الرجل أن يغامر بمحاولة استعادة مبنى المركز، والذي كان جزء منه يحترق ربما بسبب نيران كان حراس السجن قد أشعلوها لطبخ طعامهم وذلك قبيل هجوم المتمردين.

وهكذا انتهى الفصل الأول من معركة نيالا.

عند تقدم الملازم ثاني سعد أفندي عمر نحو المركز فر المتمردون وهم يسابقون الريح محاولين النجاة من زخات طلقات البنادق التي كان يقذفهم بها رجال الشرطة وحراس السجون (وبعضهم كان مصابا بجراح خطيرة). واتخذ النقيب بلال رزق والملازم ثاني سعد أفندي عمر وجندهما (والذين بلغ عددهم الآن ستة وأربعين رجلا) وعدد آخر من الموظفين موقفا دفاعيا في جهة الشرق على بعد مائة ياردة من مباني الحكومة، بينما كانت طبول نقارة الفكي السحيني تدق منادية جنده للتجمع حوله تحت شجرة التبلدي.

صدم الملازم ثاني سعد أفندي عمر عند استرداده للمركز عندما وجد أن ما كان عند فيلقه من الذخيرة قد أشرف على النفاد، بيد أنه سر أيما سرور عندما أخبره ابن لأحد الكتبة أن بالمخزن نحو أحد عشر ألفا من الطلقات النارية.

ساد الصمت مسرح المعركة لدقائق معدودة، ولم يكن الملازم ثاني سعد أفندي عمر يريد أن يتيح للفكي السحيني ودراويشه فرصة إعادة تنظيم قواتهم ففتح عليهم نيرانا كثيفة لاستفزازهم كي يهاجموا قواته. وبالفعل فعلوا ما أراد لهم فعله، وكانت قوة نيرانهم بسبب عددهم الضخم كبيرة جدا. .

والآن بدأت أكثر حوادث تلك المعركة بطولة، إذ شاركت زوجات رجال الشرطة وحراس السجن الرجال في القتال. ومع أصوات الزغاريد العالية الحادة كن يقاتلن، ويحثن الرجال على الصمود، ويجلبن الذخيرة والماء من حوض كان على بعد خمسين ياردة جنوب سور الأسلاك الشائكة المحيطة بالمركز.

لم يحفظ لنا التاريخ غير أسماء قليل من هؤلاء البطلات (بطلات من منظور الكاتب بالطبع.. المترجم) بكل، وهن: حمدة زريقة ومريم أم ديرا. وفي تلك المعركة استولت مريم على صندوق للذخيرة وحاولت فتحه برميه على الأرض مررا، إلى أن عثرت على فأس حطمت به الصندوق. وفي قصة أخرى من قصص بطولات

النساء قامت حمدة زريقة بمساعدة رجل اسمه زيتون كان يحرس نساء مدينته بسيف وحيد. جمعت تلك المرأة عددا كبيرا من الحراب، وظلت تقدم للرجل تلك الحراب واحدة بعد أخرى ليقذفها في وجوه المهاجمين. وكذلك أبدت شجاعة فائقة عندما تصدت لمن سرق متاع سيدها وناقته وحماره، وجرت خلفه وافلحت في إجباره على التخلي عن ما سرقه!

لم تكن هنالك لحظة من لحظات المعركة لم تشارك فيها النساء بجهد ما. وعندما كانت البنادق تصبح حارة لا يمكن مسها، كن يجلبن الماء في جرار ويقمن بتفريغها على البنادق حتى تبرد.

ورغم صمود المدافعين، فقد ظل المتمردون يتقدمون رغم خسارتهم لأرواح بعض منهم مع كل ياردة يكسبونها، ولكن بدا تقدم المتمردين برغم كثافة النيران المصوبة تجاههم وكأنه تصديق لنبوءة الفكي السحيني بأن رصاص الحكومة سيستحيل ماء.

ومضت المعركة تزداد أوارا، ومع مرور الدقائق والساعات أخذت ذخيرة جند الحكومة في النفاد، حتى حدث فجأة ما قلب موازين القوى، وكانت تلك من اللحظات العابرة والتي كثيرا ما غيرت نتيجة الحرب في كثير من أرجاء العالم عبر تاريخه. شاهد أحد جنود الحكومة الفكي السحيني من على بعد مائة وخمسين ياردة في رفقة حامل الراية وضارب النقارة ونافخ البوق (البروجي). أطلق الجندي طلقتين ناريتين على ضارب النقارة والبروجي فصمتا وإلى الأبد فتزعزع المهاجمون لهنيهة إلا أنهم استفاقوا بعيد تلك الصدمة واستأنفوا الاندفاع. وانتهز الملازم ثاني سعد أفندي عمر السانحة وأمر أحد رقبائه المجيدين بالتصويب على الفكي السحيني وحصانه، وما هي إلا لحظات وقد هوِي الفكي جريحا من على فرسه، والذي أصيب هو الآخر في مقتل.

وجَم المهاجمون عندما رأوا رأي العين زعيمهم مجندلا على الأرض، فلم يكن الرجل بالنسبة لهم قائدا عسكريا فحسب، بل كان رجلا ذا قدرات غير طبيعية نجح باستغلالها في غسيل أدمغتهم وإيهامهم بأنه النبي عيسى. وبسقوطه سقطت هممهم وانحسر هجومهم.

ولم يبق أمام المتمردين إلا أن ينسحبوا ليتبعهم جنود قوات سلطان كبكبيه الصديقة، ويمطرونهم زخات من نيران طلقات البنادق التي ورثها هؤلاء من رجال الشرطة الذين سقطوا صرعى.

وعند العصر وارت قوات الحكومة جثث قتلاها الثرى، وظل رجال الحامية المنهكون واقفين وسط أكوام قتلى المتمردين وجرحاهم وهم في ضيق من أنينهم وتأوهم، يحرسون المركز ويترقبون هجوما جديدا من المتمردين لم يقع أبدا (لم يذكر المؤلف ما فعل بمن قتل أو جرح من أتباع الفكي السحيني. المترجم).

وكانت فرقة المشاة المحمولة قد سارت في غضون الخمسة وسبعين ساعة الأخيرة نحو عشرين ومائة ميلا، وقضت ليلة كاملة دون نوم أو راحة وهي في أقصى درجات الاستعداد، وخاضت معركتين شرستين، ومع ذلك فقد توجب عليهم مكابدة ليلة أخرى ملؤها السهد والترقب. ولم يكن حال المدنيين الذين كتب عليهم القتال بأحسن حالا من العسكريين، فقد كانوا قد قضوا الأسبوع الماضي كله في كرب وضيق وتحسب.

ونفخ جندي حكومي بوقه ليعلن للناس أن المركز ما زال في يد الحامية، وأن النصر كان حليف الحكومة.

لم يعرف العدد الحقيقي لمن قتل من أتباع الفكي السحيني في تلك المعركة، إلا أن حقيقة أن ستة عشر ألفا من الطلقات قد صبت نيرانها عليهم تكفي للتدليل على أن عدد القتلى لا بد أن يكون كبيرا.

ولم يبق من الناجين من أُتُونُ تلك المعركة كثير من الرجال ليحكوا تفاصيل ما حدث وكم كان عددهم.

غير أن شهادة أحد سجناء سجن نيالا واسمه الغالي تاج الدين (وقد ثبت فيما بعد أنه كان قد اتهم زورا وبهتانا بخيانة الأمانة وأدين بها) قد تلقي بعض الضوء على ما حدث في غضون ساعات ذلك الهجوم والذي كان السجين يراقبه من باب السجن المصنوع من الأسلاك.

ذكر ذلك السجين أن عدد الدراويش الذين هاجموا المركز يساوي تقريبا ضعف عدد أفراد قبيلته عندما يخرجون في استعراض عسكري، مما قد يعني أن عدد المهاجمين كان يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل. ولكن لا ينبغي افتراض أن كل هؤلاء كانوا مشتركين فعليا في المعركة، فمعلوم أن بعضهم كان قد وضع كقوة احتياطية في الخور. ويعني هذا أيضا أن نسبة عدد جنود الفكي الحسيني إلى عدد جنود الحكومة ومن معها كان أربعين إلى واحد في الهجوم الأول، وربما ثمانين إلى واحد فيما تلاه من هجوم.

لقد انتصرت القوات الحكومية حقا، إلا أنه كان انتصارا مأساوي الكلفة.

فقد قتل في المعركة الرائد شون والسيد ماكنيل مع أربعة من الكتبة. وقتل سبعة عشر من فرقة المشاة المحمولة، وكان عدد أفرادها خمسة وستين جنديا. وقتل نصف عدد رجال الشرطة الأربعين.

وبالجملة يمكن القول بأن نصف عدد المدافعين قد قتل في تلك المعركة، وكان عدد القتلى يساوي ضعف عدد الجرحى مما يشير إلى ضراوة المعركة وإصرار المحاربين من الجانبين على انتزاع النصر.

وتم فيما بعد منح قواد المعركة مثل بلال رزق وحسن محمد الزين نيشان الخدمة

الممتازة بينما نال الضابط سعد عمر "الصليب العسكري"، ومنح الآخرون ما يستحقونه من تكريم نظير إيقافهم لتمرد كان من الممكن أن يقود لو كتب له النجاح إلى تمرد وفوضى واسعة الانتشار. وبالفعل كانت قد سرت في بعض مناطق كردفان ودارفور إشاعات عن هزيمة الحكومة شجعت قيام ثلاث حوادث محدودة للتمرد، إلا أن الحكومة قامت، وبسرعة، بإخماد تلك الحركات في مهدها فلم تقم لها قائمة.

لم تنس الحكومة دور النساء اللواتي شاركن في تلك المعركة فتم منحهن من أبقار كانت الحكومة قد صادرتها من المتمردين الذين ساهمت أولئك النسوة في دحرهم. وبذا تم تأمين أمر معاشهن في مستقبل الأيام.

***

من أحداث تلك الأيام الغريبة قصة مندوب كان قد أرسل للفاشر فور انتهاء المعركة وحمل صندوقا مغلقا به قائمة بأسماء من قتلوا أو جرحوا في المعارك خشية أن تصل لعاصمة المديرية أنباء كاذبة وإشاعات مغرضة عن أعداد قتلى وجرحى المعركة. ولكن كان ذلك جهدا ضائعا إذ إن أحد خدم السيد ماكنيل.كان قد انسل خلسة من نيالا مع أول اشارة لبدء المعركة وهرب للفاشر التي تبعد مائة وعشرين ميلا يسابق الريح فوصلها في أربعين ساعة فقط، وهناك أشاع أخبارا وأرقاما كاذبة عن حصاد تلك المعركة. كانت حكاية ذلك الرجل وجبنه مصدرا للتندر والأغاني السفيهة، والتي عاشت بعد مماته لسنوات وسنوات، وظلت متداولة حتى بعد أن طمر النسيان اسم ذلك الخادم.

وظل الناس لعهد طويل يتداولون في جلسات سمرهم المسائية قصص تلك المعركة ويتحدثون عن شجاعة من شاركوا فيها وعن من قاتلوا ببسالة رغم جروحهم النازفة حتى نفدت ذخيرتهم، ويحكون حكاية الغالي تاج الدين، ذلك السجين البريء، والذي جلبت له زوجه سيفا له مقبض فضي منع به من أراد من

المسجونين الهرب والالتحاق بجنود الفكي السحيني، وهو يصيح فيهم: "الدين منصور".

وبقي الناس يذكرون حامد طمبل، ذلك الصبي الغض الذي كان أحد حراس خيول المركز، والذي قتل بمفرده اثني عشر من جنود الأعداء (من وجهة نظر الكاتب بالطبع. المترجم.)، ولم يفقد حصانا واحدا مما كان يحرسه.

أما حارس السجن العريف موسى رحمة فقد أبى بشمم أن تنتزع من فخذه اليمنى إلا بعد انتهاء القتال حربة من النوع الذي يشابه صنارة صيد السمك، وتهتك الجسد عند دخولها وعند إخراجها أيضا. وطلب الرجل من رفيق له أن يكسر رمح الحربة ثم ربط فخذه بلفافة قماش ومضى يزحف على مؤخرته مستندا على يده اليمنى وساقه اليسرى حتى وصل خط إطلاق النار عى بعد ثلاثين ياردة.

كانت تلك بعض لمحات لصور من البطولة والبسالة التي سجلتها ذاكرة من شهدوا تلك الموقعة، ولا ريب أن هنالك ما يماثلها أو يفوقها من صور بديعة قبرت مع من فقدوا أرواحهم وهم يقاومون ذلك التمرد.

***

طافت بخاطري ذكرى تلك المعركة وأنا في زيارة لمدينة أبي حمد بمديرية بربر حين طلبت زيارة قبور الجنود السودانيين والبريطانيين الذين قتلوا في المعركة التي دارت في السابع من أغسطس من عام ١٨٩٧م أثناء حملة النيل. وكما نبه من قبلي السير رينال روود (شاعر ودبلوماسي وبرماني بريطاني شهير. لمترجم) فقد نبهت أنا أيضا إلى ضرورة أن تكون زيارتي لتلك القبور في النهار، إذ إنه (وكما يعتقد بعض الأهالي) ما أن يرخي الليل سدوله فإن الجنود السودانيين الأحد والعشرين يقومون على حراسة قبري الضابطين البريطانيين الرائد هـ. م. سيدني والملازم اي فيتزكلانس المدفونين بقربهم ويطلقون النار على كل من يقترب من المقبرة!!!